الليث بن ســـــعد

محدث مصر وفقيهها ورئيسها

للأستاذ على الطنطاوى

تتمـــــة

قال الامام الشافعى : الليث أفقـــه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به

وقال الامام أحمد : ليس فى أهـــل مصر أصح حديثاً من الليث

وقال الامام الشافعى : الليث أتبع للأثر من مالك

وكان ابن وهب[1] يقرأ على الشافعى مسائل الليث فمرت به مسألة ، فقال رجل من الغرباء : أحسن والله الليث ، كأنه كان يسمع مالكاً يجيب فيجيب هو ، فقال ابن وهب للرجل : بل كأن مالكاً كان يسمع الليث يجيب فيجيب هو ، والله الذى لا آلـه إلا هو ما رأينا أفقه من الليث

وقال ابن وهب : لولا مالك والليث لضلّ الناس

وقال الدراوردى : رأيت الليث عنـــد يحيى بن سعيد وربيعة[2] وانهما ليرجرجان له رجرجة ويعظمانه

وقال الذهبى : وكان من بحور العلم له حشم وافر ، وكان نظير مالك

قال ابن عساكر : كان كبار العلماء يعرفون فضله ويشيرون اليه وهو شاب ، وقيل له : أمتع الله بك ، إنا نسمع منك الحديث ليس فى كتبك ؟

قال : أو كل مافى صدرى فى كتبى ؟ لو كتبت مافى صدرى ماوسعه هذا المركب !

منزلته عند الخلفاء والولاة

قال الليث : قال لى أبو جعفر : تلى لى مصر ؟

قلت : لا يا أمير المؤمنين ، إنى أضعف عن ذلك ، إنى رجل من الموالى

فقال : مابك ضعف منى إلا ضعف بدنك ، أتريد قوة أقوى منى ؟ ولـكن ضعفت نيتك فى العمل عن ذلك ، فأما إذ أبيت فدلنى على رجل

فقلت : عثمان بن الحكم الجذامى ، رجل له صلاح وعشيرة

فبلغ ذلك عثمان فحلف ألاّ يكلمنى

فلما أردت أن أودعه قال لى : قد رأيت ما سرنى من سداد عقلك فاتق الله فى الرعية أمثالك

وقال يعقوب بن داود وزير المهدى : قال لى أمير المؤمنين لما قدم الليث بن سعد بغداد : إلزم هذا الشيخ ، فقد ثبت عند أمير المؤمنين أنه لم يبق أحد أعلم بما حمل منه

وقال لؤلؤ خادم الرشيد : جرى بين هرون الرشيد وبين بنت عمه زبيدة بنت جعفر كلام ، فقال هرون : أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنة . ثم ندم فجمع الفقهاء فاختلفوا . ثم كتب إلى البلدان ، فاستحضر علماءها اليـه ، فلما اجتمعوا جلس لهم فسألهم فاختلفوا ، وبقى شيخ لم يتكلم ، وكان فى آخر المجلس وهو الليث بن سعد . فسأله فقال : إذا أخلى أمير المؤمنين مجلسه كلمته ، فصرفهم . فقال : يدنينى أمير المؤمنين . فأدناه . فقال : أتكلم على الأمان ؟ قال : نعم . فأمر باحضار مصحف ، فأحضر ، فقال : تصفحه يا أمير المؤمنين حتى تصل إلى سورة الرحمن فاقرأها ، ففعل ، فلما انتهى إلى قوله تعالى « وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ » . قال : أمسك يا أمير المؤمنين ، قل : والله . . .

فاشتد ذلك على هرون . فقال : يا أمير المؤمنين الشرط أملك فقال : والله (حتى فرغ اليمين) . قال : قل ، إنى أخاف مقام ربى . فقال ذلك

فقال : يا أمير المؤمنين ، فهما جنتان ، وليست بجنّة واحدة ! (قال) فسمعنا التصفيق والفرح من وراء الستر ، فقال الرشيد : أحسنت . وأمر له بالجوائز والخلع ، وأمر له باقطاع الجيزة ، ولا يتصرف أحد بمصر إلا بأمره ، وصرفه مكرماً

قال الليث : وسألنى هرون الرشيد : ماصلاح بلدكم ؟ قلت : يا أمير المؤمنين صلاح بلدنا اجراء النيـل وصلاح أميرها . وإنه

---

(١) هو عبد الله بن وهب بن مسلم الفرشى بالولاء أحد الأئمة . قال أحمد : ما أصح حديثه ! وقال ابن معين : ثقة . وقال ابن حبان : حفظ على أهل مصر والحجاز حديثهم . رووا أنه حدث بمائة ألف حديث . مات سنة ١٩٩

(٢) هو ربيعة بن أبى عبد الرحمن التيمى المدنى الفقيه المعروف بربيعة الرأى . وثقه أحمد وابن سعد وابن حبان وأبو حاتم والنسائى مات سنة ١٣٦

من رأس العين يأتى الكدر ، فاذا صفا رأس العين صفت العين

قال : صدقت يا أبا الحارث

وقال السيوطى : كان نائب مصر وقاضيها من تحت أوامر الليث ، وكان إذا رابه من أحد شيء كاتب فيه فيعزله

قال ابن أبى مريم : كان اسماعيل بن اليسع الكندى من خير قضاتنا ، غير أنه كان يذهب مذهب أبى حنيفة فى إبطال الحبس فأبغضوه ، فجاء الليث فجلس بين يديه ، فرفع اسماعيل مجلسه ، فقال : إنما جئت إليك مخاصما ، قال : فى ماذا ؟

قال : فى أحباس المسلمين ، قد حبس رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير فمن بقى بعد هؤلاء ؟

وقام فكتب إلى المهدى ، فورد الكتاب بعزله . فأتاه الليث فجلس إلى جنبه ، وقال للقارىء : اقرأ كتاب أمير المؤمنين ، فقال له اسماعيل : يا أبا الحارث ، وما كنت تصنع بهذا ؟ والله لو أمرتنى بالخروج لخرجت ؟

فقال له الليث : والله إنك لعفيف عن أموال الناس

وكان فى كتاب الليث إلى المهدى : انا لم ننكر عليه شيئاً غير أنه أحدث أحكاماً لا نعرفها

ولما أذن موسى بن عيسى للنصارى فى بنيان الكنائس التى هدمها على بن سليمان ، بنيت كلها بمشورة الليث بن سعد وعبدالله بن لهيعة

منزلة عند الناس

كان له أربعة مجالس يجلس فيها كل يوم ، فيجلس ليأتيه السلطان فى نوائبه وحوائجه . وكان الليث يغشاه السلطان ، فاذا أنكر من القاضى أمراً أو من السلطان كتب إلى أمير المؤمنين فيأتيه العزل ، ويجلس لأصحاب الحديث ، وكان يقول نحوا أصحاب الحوانيت فان قلوبهم متعلقة بأسواقهم ، ويجلس للمسائل يغشاه الناس فيسألونه ، ويجلس لحوائج الناس فلا يسأله أحد من الناس حاجة فيرده ، كبرت حاجته أم صغرت . . .

وقال منصور بن عمار : كان الليث إذا تكلم رجل فى المسجد الجامع أخرجه ، فلما دخلت مصر تكلمت فى الجامع ، فاذا رجلان قد دخلا فأخذانى ، فقالا : أجب أبا الحارث . فذهبت وأنا أقول : واسوأتاه أخرج من البلد هكذا . . .

فلما دخلت على الليث سلمت ، فقال : أنت المتكلم فى المسجد؟

قلت : نعم . قال : أعد علىّ ما قلت ، فاعدته ، فرق الشيخ وبكى ، وقال : ما اسمك ؟ قلت : منصور بن عمار . قال : أبو السرى ؟ قلت : نعم . فدفع إلىّ كيساً وقال : صُنْ هذا الكلام عن أبواب السلاطين ، ولا تمدحن أحداً من المخلوقين ، بعد مدحك لرب العالمين ، ولك علىّ فى كل سنة مثلها

وكتب اليه مالك فى رسالة : « . . وأنت فى أمانتك وفضلك ومنزلتك وحاجة من قبلك اليه . . . الخ »

وقال له يحيى بن سعيد الأنصارى ، وقد رآه يفعل شيئاً من المباحات : لا تفعل ، فانك إمامٌ منظور اليك

سخاؤه وكرمه

قال شعيب بن الليث : كان أبى يستغل فى السنة مابين عشرين ألف دينار الى خمسة وعشرين ألفاً ، فتأتى عليه السنة وعليه خمسة الآف دينار ديناً

وقال محمد بن رمح[1] : كان دخله ثمانين ألف دينار فى العام وما أوجب الله عليه زكاة قط

وخرج يوماً فقوّموا ثيابه ودابته بثمانية عشر الف درهم الى عشرين ألفاً ، وخرج شعبة[2] فقوّموا حماره وسرجه ولجامه بثمانية عشر الى عشرين درهما

وقال أبو رجاء[3] : قفلنا مع الليث من الاسكندرية ، وكان معه ثلاث سفائن : سفينة فيها مطبخه ، وسفينة فيها عياله ، وسفينة فيها أضيافه

قال عبد الله بن صالح (كاتبه) : صحبت الليث عشرين سنة لايتغدى ولا يتعشى إلا مع الناس ، وكان لا يأكل إلا بلحم ، إلا أن يمرض ، وكان لايتردد اليه أحد إلا أدخله فى جملة عياله مادام يتردد عليه ويسمع منه ، فاذا أراد الخروج زوده بالبلغة الى وطنه

وكان يتخذ لأصحابه الفالوذج ، ويعمل فيه الدنانير ، ليحصل لمن أكل كثيراً أكثر من صاحبه !

(١) هو محمد بن رمح بن المهاجر التجيبي بالولاء المصرى الحافظ وثقه أبو داود ، وقال النسائى : ما أخطأ فى حديث قط توفى سنة ٢٤٢

(٢) كان شعبة فقيراً صابراً ، وكان الليث غنياً شاكراً ، وكلاهما على خير ، وشعبة هو ابن الحجاج بن الورد التكى بالولاء الحافظ أحد أئمة الاسلام ، نزيل البصرة ، قال أحمد : كان شعبة أمة وحده ، وقال ابن معين : إمام المتقين ، وقال أبو بحر : ما رأيت أعبد لله من شعبة ، وهو أول من تكلم فى رجال الحديث توفى سنة ١٦٠

(٣) هو قتيبة بن سعيد الثقفى بالولاء أحد أئمة الحديث توفى سنة ٢٤٠

وكان يطعم الناس الهرايس بعسل النحل وسمن البقر فى الشتاء ، وفى الصيف باللوز والسكر

وكان يصل مالكاً كل سنة بمائة دينار ، فكتب اليه مرة أن علىّ ديناً ، فبعث اليه بخمسمائة دينار . وكتب اليه مالك مرة إنى أريد أن أدخل ابنتى على زوجها ، فأحب أن تبعث لى بشىء من عصفر

قال ابن وهب : فبعث اليه بثلاثين جملاً محملة عصفراً فصبغ منه لابنته ، وباع منه بخمسمائة دينار ، وبقى عنده فضلة

قال أبو صالح (كاتبه) : كنا على باب مالك بن أنس فامتنع علينا (أى احتجب) فقلنا : ليس يشبه هذا صاحبنا ، فسمع مالك كلامنا فأمر بادخالنا عليه ، فقال لنا : من صاحبكم ؟ قلنا : الليث بن سعد

قال : تشبهوننى برجل كتبت اليه فى قليل عصفر نصبغ به ثياب صبياننا ، فأنفذ الينا منه ما صبغنا به ثياب صبياننا وثياب كبيراننا ، وبعنا الفضل بألف دينار ؟

ولما حج الليث أهدى اليه مالك طبقاً فيه رطب ، فردّ اليه على الطبق ألف دينار

ولما احترقت دار ابن لهيعة وصله بألف دينار ، ووصل منصور بن عمار القاضى بألف دينار

وكان يجىء الى المسجد كل يوم على فرس ، فيتصدق كلّ صلاة على ثلثمائة مسكين ، ولم يكن يردّ سائلاً :

أتاه مرة سائل فأمر له بدينار ، فأبطأ الغلام به فجاء سائل آخر فجعل يلحّ ، فقال له الأول : اسكت . فسمعه الليث فقال : مالك وله ؟ دعه يرزقه الله ، وأمر له بدينارين

قال منصور بن عمار : كنت عند الليث جالساً فأتته امرأة ومعها قدح ، فقالت : يا أبا الحارث إن زوجى يشتكى وقد نُعت لنا العسل . فقال : اذهبى الى الوكيل فقولى له يعطيك . فجاء الوكيل يسارّه بشىء . فقال له الليث : اذهب فأعطها مطراً ، إنها سألت بقدرها فأعطيناها بقدرنا (قال : والمطر عشرون ومائة رطل)

واشترى قوم من الليث ثمره بمال ، ثم إنهم ندموا فاستقالوه فأقالهم ، ثم استدعاهم فأعطاهم خمسين ديناراً وقال :

إنهم كانوا أملوا أملاً فأحببت أن أعوضهم

وقال أسد بن موسى[1] : كان عبد الله بن على يطلب بنى أمية فيقتلهم ، فرحلت الى مصر فدخلتها فى هيئة رثة ، فزرت الليث ، فلما خرجت من منزله تبعنى خادم له فى دهليزه ، وقال : اجلس حتى أخرج اليك ، فجلست ، فلما خرج وأنا وحدى ، دفع الىّ صرة فيها مائة دينار ، وقال : يقول لك مولاى أصلح بهذه النفقة أمرك ، ولم شعثك ، وكان معى فى حُجزتى[1] ألف دينار ، فقلت للخادم : أدخلنى على الشيخ فانى فى غنى عن هذه المائة ، فاستأذن لى عليه ، فأخبرته بنسبى ، واعتذرت اليه عن رد المائة ، وأخبرته بما معى ، فقال : هذه صلة وليست بصدقة ، فقلت : أكره أن أعوّد نفسى هذه العادة ، وأنا فى غنى ، قال : ادفعها الى بعض أصحاب الحديث ممن تراه مستحقا

فلم يزل بى حتى أخذتها ففرقتها فى جماعة

وفاته

توفى الليث يوم الجمعة ١٤ شعبان سنة ١٧٥

قال خالد بن عبد السلام الصدفى : جالست الليث بن سعد ، وشهدت جنازته مع أبى ، فما رأيت جنازة قط بعدها أعظم منها ، ولا أكثر من أهلها ، ورأيت الناس كلهم فى جنازته عليهم الحزن ، يعزّى بعضهم بعضاً ويبكون ، فقلت : يا أبت كأن كل واحد من هؤلاء صاحب الجنازة !

فقال : يا بنى ، كان عالماً كريما ، حسن العقل ، كثير الأفضال ، يا بنى لا ترى مثله أبداً . . . .

قال بعض أصحابه : ولما دفناه سمعنا صوتاً وهو يقول :

ذهب الليث فلا ليث لكم ومضى العلم قريباً وقُبر

فالتفتنا فلم نر أحداً

وصلى عليه موسى بن عيسى الهاشمى ، ودفن فى القرافة الصغرى ، رضى الله تعالى عنه وبوأه من الجنة غرفاً

* * *

هذا مابقى من هذه السيرة الجليلة ، متفرقاً فى شتى الكتب ، ومختلف الأجزاء ، وقد ضاع سائرها ، كما ضاع هذا التراث العلمى الضخم ، فرحمة الله على أولئك الأجداد الذين بنوا وشادوا ، وألفوا وجمعوا ، وعلموا وعملوا ، ورزقنا التأسى بأعمالهم ، والسير على سننهم . . . وألهمنا إحياء تاريخنا ، ونشر ماضينا ؟

على الطنطاوى

(١) هو أسد بن موسى بن ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن مروان صاحب المسند يقال له أسد السنة ، قال النسائى ثقة لو لم يصنف لكان خيراً له . توفى ٢١٢

(١) الحجزة بالضم معقد الأزار ومن السراويل موضع التكة